نظرات نقدية
فى نص شعرى لزهير بن أبى سلمى

إعداد
ا.د/ على محمد طلب
أستـــاذ الأدب والنقـــد
ووكيل كلية اللغة العربية بأسيوط

نظرات نقدية
فى نص شعرى لزهير بن أبى سُلمى

التعريف بالشاعر وشعره[1] :

هو زهير بن أبى سلمى ربيعة بن رياح المزني ، وليس من أسماء العرب (سُلمى) بضم السين غيره ، ولد فى مكان بنجد من أرض غطفان، وكُنى أبوه يا بنته سُلمى فقيل له (أبو سُلمى ربيعة) ، ومات والد الشاعر وقد حدث ، فتعهد أخواله بنو عطفان وبخاصة بشامة بن الغدير الذى أورثه بعض ماله ، ويبدو أن اليتم حفزه إلى التأمل فى الحياة ، مستطلعاً حكمتها ، والجانب الإيجابى منها ، وكفالة بشامة بن الغدير له جعله يرث المال والشعر والخلق الكريم ، وكان بشامة بن الغدير رجلاً مقعداً حكيماً ، قد اشتهر بسداد الرأى وجودة الشعر ، فأغترف من شعره وتأثر بخلقه وعلمه وحلمه ، وحين توفى أبوه تزوجت أمه من بعده

---

[1] انظر فى التعريف بالشاعر : الشعر والشعراء لإبن قتيبة ١٣٧/١ ، وما بعدها ط دار المعارف بالقاهرة ، وشرح القصائد العشر للتبريزى ص٩٩ وما بعدها ط السلفية بالقاهرة ، وزهير بن أبى سُلمى للدكتور/ عبد الحميد سند الجندى ص٥٢ وما بعدها ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة بالقاهرة ، وتاريخ الأدب العربى للأستاذ أحمد حسن الزيات ص ٥٢ ، وما بعدها ط نهضة مصر ، والعصر الجاهلى للدكتور / شوقى ضيف ص٣٠٠ وما بعدها ط دار المعارف بالقاهرة ، ونماذج فى النقد العربى للأستاذ / إيليا الحاوى ص ٢٠٨ ط دار الكتاب اللبنانى بيروت، ونصوص من الأدب الجاهلى للدكتور / عبد المقصود السعداوى ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة وغير ذلك من الكتب .

أوس ابن حجر الشاعر التميمى المشهور ، وكان زوج أمـــه أوس بـــن حجر قد طبعه على مذهبه فى الشعر وأكسبه دربته الخاصة به ، وهكـذا كان بيت زهير عريق فى الشاعرية : فـــأبوه وخالـــه وأختـــاد ســـلمى والخنساء ، وولداد كعب وبجير من الشعراء المشهورين ، وكان روايـــة لأوس بن حجر يحفظ شعره ويروى عنه .

ومن أخبار زهير أنه تزوج من إمرأتين : أم أوفى التى ذكرها فـــى شعره ويبدو أن المعيشة لم تدم بينهما فطلقها ، بعد ما ولدت منه أولاداً ماتوا جميعاً فى حياته ، والثانية التى تزوجها من بعدها وهى كبشة بنت عمار الغطفانية ، وهى أم أولاده : كعب وبجير وسالم ، ومات سالم فـــى حياته ورثاد ببعض شعره.

وشهد زهير حرب (داحس والغبراء) بين عبيس وزبيان ، وقد دامت هذه الحرب أربعين سنة ، كما تذكر المصادر القديمة ، وقد كانت هـــذه الحرب وغيرها مصدر شقاق وتنافر وتناحر ، تخلف الويـــلات وترمـــل النساء وتيتم البنين والنبات وتقضى على الأخضـــر واليـــابس ، وهـــو يتحدث فى شعره طويلاً عن حروب داحس والغبراء مشيداً بـــهرم بـــن سنان والحارث بن عوف سيدى بنى مرة اللذين حقنا دماء عبس وذبيان بعد أن طال عليهما الأمد فى تلك الحروب ، إذ تحملا ديات القتلى ويقال : إنها كانت ثلاثة آلاف بعير أدياها فى ثلاث سنين ، وظل طـــوال حياتـــه يمدح هرماً على هذه الفعلة ، وهرم يغدق عليه، ويقول ابن قتيبـــة فـــى كتابه الشعر والشعراء فى هذا الصدد : " وكان من جيد شعره فى هـــرم بن سنان المري" ، وقال عمر ــ رضى الله عنه ــ لبعض ولـــد هـــرم

"أنشدنى بعض ما قال فيكم زهير فأنشده " فقال "لقد كان يقول فيكم فيحسن " ، فقال : " يا أمير المؤمنين : إنا كنا نعطيه فنجزل !! " ، فقال عمر ــ رضى الله عنه ــ "ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم"[١].

ومن طريق ما يروى أن هرماً حلف أن لا يمدحه زهير إلا أعطاه ولا يسأله إلا أعطاه ولا يسلم عليه إلا أعطاه عبداً أو وليداً أو فرساً ، فاستحيا زهير مما كان يقبل منه ، فكان إذا رآه فى ملأ قال "عموا صباحاً غير هرم ، وخيركم استثنيت"[٢].

وقد عاش زهير فى عصر حافل بالأحداث الكبار التى تثير عواطف الحزن فى قلب الشاعر وتهيج كوامن القول فى نفسه ، فقد كان عصر غارات وحروب فلما تطلع الشمس أو تغرب على غير جيشين يقتتلان ، فما تكاد السيوف تغمد فى قرابها إلا لتسل من جديد ، حتى شرقت الأرض بالدماء ، وامتلأت البطاح بالأشلاء إلى أن تمكن هرم بن سنان والحارث بن عوف من حقن الدماء ، ومن ثم مدحهما زهير برائع الشعر وأجوده ، ويعد مدحه فيهما من عيون الشعر العربى ، كان يضفى حللاً من هذا المديح الرائع على حصن بن حذيفة سيد بنى قرازة ، وكان له دور مشهور فى حروب قومه مع قبيلة عبس وغيرها من القبائل ، ولهذا لا نعجب إذ أطلق على زهير (شاعر السلام) .

---

(١) الشعر والشعراء لأبن قتيبة ١/١٤٤.

(٢) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى فى ١٠/٣٠٥ ط دار الكتب المصرية بالقاهرة .

وكما قلنا سابقاً كان أبوه وخاله وأختاه سُلمى والخنساء وولداه كعب وبجير وأحفاده من الشعراء المشهورين ، فنحن إذن بإزاء شاعر اتصل الشعر فى بيته إتصالاً وثيقاً ، لم يعرف لشاعر جاهلى ممن عاصروه ، ويؤكد ابن قتيبة هذا المعنى فى قوله "إنه لم يتصل الشعر فى ولد أحد من الفحول فى الجاهلية ما أصل فى ولد زهير ، وفى الإسلام ما اتصل فى ولد جرير"[١]. فقد عاش زهير للشعر يعلمه ابنيه بجيرا وكعباً وأناساً آخرين من غير بيته أشهرهم الحطيئة ، فهو تلميذه ، ومن الذين تلقوا فن الشعر على يديه ، وينقل ابن قتيبه آراء أبى عبيدة وأبى عمرو بن العلاء والأصمعى فى زهير يقول "قال أبو عبيدة : يقول من فضل زهير على جميع الشعراء إنه أمدح القوم وأشدهم أسر شعر " وقال "وسمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : الفرزدق يشبه بزهير ، وكان الأصمعى يقول: زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه ، ولم يذهبوا به مذهب المطبوعين"[٢].

ونلاحظ أن زهيراً كان كأستاذه أوس بن حجر فى الاعتماد على الحاسة فى إخراج صورة الشعرية ، بل كان أكثر من أستاذه تأنقاً وتجويداً فى إبراز تلك الصورة ، فزهير يصنع شعره ولا يندفع فيه على سجيته ، فشعره وليد الرؤية وربيب الصنعة ، فقد كان يتخير المعنى ويلائم بين أجزائه ، ثم يتخير الألفاظ التى يقل فيها الغريب ، وأكثر شعر

---

(١) الشعر والشعراء لابن قيبة ١/١٣٧.

(٢) المصدر السابق ١/١٤٤.

زهير فى المدح والوصف والحكمة والمثل ، ويقول فيه الأستاذ أحمد حسن الزيات " شعره يمتاز بصدق اللهجة وخلوه من الحوشى والتعقيد، وبعده عن سخف القول وهجر الحديث ، وجمعه الكثير من المعانى فى قليل من الألفاظ ، وهُوَ واحد من الشعراء فى إجادة المدح وضروب المثل وإرسال الحكمة ، وزهير من عبيد الشعر الذين تعلموه ونقحوه ، وله قصائد تعرف بالحوليات يزعمون أنه كان ينظمها فى أربعة أشهر ، ويهذبها فى أربعة ، ثم يعرضها على خاصة الشعراء فى أربعة ، فلا ينشدها الناس إلا بعد حول"[١] .

وعاش حياته فى جد ووقار وميل إلى الخير ، وكان فيه خلق كريم ونبل وبعد عن الفحش والعهر ، وكان شعره عفيفاً طاهراً داعياً للسلام ميالاً للخير خلوقاً ، وعمر زهير طويلاً حتى قيل إنه نيف على المائة ، ومات قبيل البعثة المحمدية .

جو النص (المناسبة التى قيل فيها النص) :

لقد تناول الشاعر زهير بن أبى سُلمى حرب داحس والغبراء فى معلقته الشهيرة والتى مطلعها :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلّم بحومانة الدراج فالمتثلم[٢]

---

[١] تاريخ الأدب العربى للأستاذ / أحمد حسن الزيات ، ص٥٣.

[٢] أم أوفى : اسم إمرأة وقيل هى زوج زهير ، الدمنة : ما أسود من آثار الديار ، الحومانة: الأرض الغليظة ، الدراج والمتثلم : موضعان بالعالية .

ولقد اشتدت الحرب بين عبس وذبيان ، وكثرت الضحايا من القبيلتين حتى كادت تقضى عليهما ، لولا أن رجلين كريمين تدخلا فى الأمر للصلح بين القبيلتين هما : هرم بن سنان ، والحارث بن عوف ، وتحملا ديات القتلى من مالهما الخاص ، وقد بلغت ثلاث آلاف بعير[1] ، فأثر ذلك العمل النبيل فى نفسية زهير ، وانفعل به أيما انفعال وأنشد إثر ذلك ملعقته ، وفيها يمدح بطلى الصلح من القبيلتين ، وفى هذه المعلقة يعد زهير شاعر السلام ، إذ تحمس للسلام وحقن الدماء لأنه صادف هوى فى نفس زهير وما طبق عليه من أخلاق كريمة وسجايا فاضلة وخصال حميدة :

النص :

يقول زهير بن أبى سلمي من معلقته :

١ــ سعى ساعياً غيظ بن مرة بعد ما ... تبزل ما بين العشيرة بالدم
٢ــ فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم
٣ــ يميناً لنعم السيدان وجدتما ... على أى حال من سحيل ومبرم
٤ــ تداركتما عبساً وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
٥ــ وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً ... بمال ومعروف من الأمر نسلم
٦ــ فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم
٧ ــ عظمين فى عليا معد وغيرها ... ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم
٨ــ فمن بلغ الأحلاف عنى رسالة ... وذبيان هل أقسمتم كلّ مقسم
٩ــ فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

---

[1] انظر : العصر الجاهلى للدكتور / شوقى ضيف ، ٣٠٢.

١٠ــ يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
١١ــ وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
١٢ــ متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضريتموها فتضرم
١٣ــ فتعرككم عرك الرحى بثفالها وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتئم
١٤ــ فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
١٥ــ فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم
١٦ــ سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم
١٧ــ وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عم
١٨ــ رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم
١٩ــ ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
٢٠ــ ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
٢١ــ ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يُستغن عنه ويذمم
٢٢ــ ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم
٢٣ــ ومن يجعل المعروف فى غير أهله يكن حمده ذماً عليه وينـدم
٢٤ــ ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
٢٥ــ ومن يغترب يحسب عدواً صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
٢٦ــ ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم[1]

شرح المفردات

١ــ المراد بالسعى هنا : العمل لإصلاح ذات البين ، والساعيان هما : هرم والحارث ، غيظ بن مرة : حىّ من غطفان ، وسعيهما : مشيهما

---

[1] شرح المعلقات السبع للزوزنى ، ص٨٢ وما بعدها ط : السعادة بالقاهرة ١٩٢١م ، وشرح القصائد العشر للتبريزى ص١٠٧ وما بعدها ، ط : السلفية بالقاهرة ، وجمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ، ص٧٠ وما بعدها ط : الرحمانية القاهرة ، ١٩٢٦م.

بالصلح وتحملها . تبزل : تشقق وتفجر أى كان بينهم صلح فتصدع ، بالدم : أى بإراقة الدم بعد عقد الصلح .

٣ــ البيت : الكعبة الشريفة ، جرهم : قبيلة من اليمن كان منها ولاة البيت قبل قريش ، وأهلكهم الله لبغيهم وانتهاكهم حرمة البيت .

٤ــ السحيل : الخيط المفرد ، والمبرم : المفتول ، وهما كنايتان عن الرخاء والشدة .

٤ــ تداركتما : أنقذتما ، عبس وذبيان : القبيلتان المتحاربتان ، تفانوا : أفنى بعضهم بعضاً ، منشم : إمرأة من خزاعة يضرب بها المثل فى الشئوم ، فقالوا: اشأم من عطر منشم .

٥ــ السلم : الصلح وتحقيق السلام ، واسعاً : شاملاً أى إن حصل لنا إتمام الصلح ببذل لأموال سلمنا من تفانى العشائر .

٦ــ العقوق : قطيعة الرحم ، المأثم : الإثم .

٧ــ معد : هو ابن عدنان ، عليا معدّ : رؤساؤهم ، والإستباحة : وجود الشئ مباحاً ، والكنز : المال المدفون فى الأرض ، ويستعمل فى غير المال مراداً به الكثرة والعظمة ، يعظم : يصير عظيماً .

٨ــ الأحلاف : جمع حليف وهم هنا : أسد وغطفان وطئ ، المقسم : القسم واليمين .

٩ــ فلا تكتمن الله : لا تظهروا الموافقة على الصلح ، وتبيتون الغدر فى قلوبكم فلن يخفى على الله شئ مما تسرون .

١٠ــ يوضع : أى يسجل ، يوم الحساب : يوم القيامة ، ويقول الدكتور/ شوقى ضيف فى هذا البيت وما قبله " وإذا صحت نسبة البيتين إليه كان ذلك دليلاً على أنه أحد من تحنفوا فى الجاهلية وشكوا فى دينهم الوثنى"[١]. وينقل رأيا لأبن حبيب فى كتابه (المحبر) حيث يذكر أنه كان ممن حرموا على أنفسهم فى الجاهلية الخمر والسكر والأزلام[٢] .

١١ــ ذقتم : جربتم وأدركتم ، المرجم : المظنون الذى لا يقين فيه .

١٢ــ تبعثوها : تثيروها ، ذميمة : مذمومة ، تضر : تشتد وتقوى ، تضرم : تلتهب .

١٣ــ تعرككم : تطحنكم ، الثفال : جلد يبسط تحت الرحى عند الطحن ، تلقح من لقحت الناقة إذ ألقحها الفحل ومعنى لقحت الناقة : قبلت ماء الفحل ، كشافاً : أى تلقح سنتين متواليتين ، تتئم : أى تلد توأمين .

١٤ــ تنتج : تلد بالبناء للمفعول ، غلمان أشام : أى غلمان شؤم ، أحمر عاد هو عاقر ناقة صالح عليه السلام فعذب قومه بسبب فعلته ، عاد : يريد ثمود ويقال له (عاد الأخيرة) ، كما يقال لقوم هود (عاد الأولى) .

١٥ــ أغلت الأرض : أعطت الغلة ، والقفيز : مكيال عربى قديم .

١٦ــ سئمت : مللت ، تكاليف الحياة : مشقاتها ، لا أبالك : دعاء يراد به المدح.

---

(١) الشعر الجاهلى للدكتور / شوقى ضيف ، ص ٣٠٣ ط دار المعارف بالقاهرة .

(٢) انظر : المرجع السابق نقلاً عن كتاب المحبر لابن حبيب ، ص٢٣٨.

١٧ــ عم : أى أعمى لا يرى شيئاً .

١٨ــ المنايا : جمع منية وهى الموت ، الخبط: الضر باليد على غير هدى ، والعشواء : الناقة التى لا تبصر بالليل ، يعمر : يطول عمره .

١٩ــ المصانعة : المداراة والترفق ، يضرس : يمضغ بالأضراس ، يوطأ : يداس ، المنسم : خف البعير .

٢٠ ــ يفره : يصونه ويبقيه ولم ينقصه والضمير للمعروف أو للعوض والمعروف الخير .

٢١ــ معنى البيت : من رزق فضلاً أو جاهاً أو مالاً ، ولم ينفع الناس ، أحتقره الناس وذموه .

٢٢ــ أسباب السماء : نواحيها وجهاتها ، والأسباب جمع سبب وهو الحبل وكل شئ يتوصل به إلى غيره ، يرقى : يصعد .

٢٤ــ الذود : الدفع وأراد بالحوض : المحارم التى يدافع عنها المرء ، من لا يظلم يظلم : أى أن من طبع الناس أن يبطشوا بالضعيف ، وأن يظلموا من لا يقدر على الظلم .

٢٦ــ الخليقة : السجية والطبيعة ، خالها : ظنها[1].

---

[1] أنظر : نصوص من الأدب الجاهلى للدكتور / عبد المقصود السعداوى ، ص٤١ وما بعدها ، ويراجع بحث للمؤلف الدكتور / على محمد طلب فى مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط بعنوان (الدعوة إلى السلام فى شعر زهير) العدد الأول ص ١١٦ ، ط الأمانة ، القاهرة ١٩٨٢م .

الأفكار التى يدور حولها النص :

١ــ تقدير للمساعى المشكورة فى سبيل الصلح بين القبيلتين .

٢ــ مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف .

٣ــ ما تفعله الحرب من الوبال والهلاك والدمار .

٤ــ جانب من الحكم التى تؤيد دعوة الشاعر للسلام .

المعنى العام :

فى هذه الأبيات (من ١ ــ ٧) يمدح زهير بن أبى سلمى الساعين فى الصلح بين الفريقين المتشاحنين وهما : هرم بن سنان والحارث بن عوف ، وهو بمدحه هذا يمدح من يستحق المدح ــ وهذا شأنه دائماً ــ فلقد اشتهر بأنه لا يمدح إلا من يستحق مدحه ، ولقد شهد له بذلك سيدنا عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ حيث يقول : " كان لا يمدح أحداً إلا بما هو فيه"[1] ، ولقد أضفى زهير فى هذه الأبيات على هذين الممدوحين صفات النبل والكرم والمروءة والنجدة ، فهما السيدان ، ولا سيد سواهما ، حيث حقنا الدماء ، ورأبا صدع الإنشقاق والتفرق والإنفكاك ، وأدركا عبساً وذبيان بعد أن تهيأ للفناء والخراب والهلاك ، وهذا سر العظمة فيهما فقد استباحا مالهما الخاص فى سبيل هذا الغرض الإنسانى النبيل ، فسال هذا المال فضلاً وإحساناً وصوناً للأهل وحفاظاً للعشيرة ، على الرغم من أنهما لا ذنب لهما فى هذه الحرب ولا جريرة، فهما بحق جديران بهذه الصفات التى ذكرها زهير ، وهذا المدح الذى

---

[1] الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٣٨.

توج به هامتهما ، ومن ثم فقد عرض للناس صورة من صور الكرم النادر ليقتدى الناس بهما فى كل فعالهما ، ويكون هناك أناس يدافعون عن الحق ويعملون من أجل الخير والسلام ، وسيكون جزاء هؤلاء فى كل النفوس إكباراً وإجلالاً وتعظيماً وإحتراماً .

وفى الأبيات (من ٨ــ١٥) نرى زهيراً قد ذم الحرب ووصفها بأفظع وصف ، وذكر ما تجره من خراب ودمار ، وهلاك للحرث والنسل ، وفناء للأخضر واليابس ، وهو يتوجه إلى الأحلاف الذين تكتلوا وأشعلوها حرباً ضروساً لا هوادة فيها ، وأضرموا نار الحرب فأحرقتهم جميعاً فى أتونها ، ودمرتهم بنارها ووقودها ، فهو يخاطب هؤلاء الأحلاف ، ويحذرهم مغبة كتمان الشر مع إظهار الخير ، فلابد أن تظهر الحقيقة للناس عياناً بياناً ، إن عاجلاً فى الدنيا أو آجلا يقوم الناس لرب العالمين فى يوم الحساب ، وسيقع عليهم الانتقام الأليم فى الدنيا والآخرة ثم يعرج الشاعر بعد ذلك على وصف هذه الحرب ، فما أشد هذه الحرب وما أعظم ويلاتها ونكباتها ، كما وصفها لنا هذا الرجل المجرب المحنك الذى صهرته الأحداث ، وعركته الحياة ، وعلمته الأيام ، فيصفها تارة بأنها نار قابلة للإضرام والاشتعال ، تأكل ما يلقى فيها من حرث ونسل ، ويصفها تارة أخرى بأنها رحى تطحن ما يأتى تحتها طحناً شديداً، ولا تخلف وراءها إلا الدمار والفناء والهلاك ، ولا شك فى ذلك فهى تنتج التوائم المشوهة ، وترضعهم الوبال ، وتذيقهم النكال ، ومن ثم يكونون كأحمر ثمود بفعلته قد جر الوبال على قومه .

ولا إخال من يسمع هذه الأبيات ، إلا أن ينفر من هذه الحرب ويجزع

من هولها ، ويتفادى نارها ولهيبها ، وهو بهذا يدعو إلى السلام ، حيث يعرض الحقيقة العارية المنكرة للحرب على الناس جميعاً ، ويبينها واضحة جلية ليعتبر من يعتبر ويتعظ من يتعظ .

وفى الأبيات من (١٦ــ٢٦) نرى الشاعر يحث الناس فى معلقته على مكارم الأخلاق ، والتحلى بأشرف الخصال والسجايا الكريمة والشمائل الفاضلة الأصيلة ، بما أورد لهم من حكم سامية وعظات بالغة، أوردها لتكون مسك الختام بعد طول التجارب وتتابع الأيام وأحداث الزمان ، وحقا لقد رسم لنا هذا الرجل مناهج السلوك الخير فى حياتنا ، وحدد الطريق الأمثل لمعاملة البشر بعضهم لبعض ، وهذه الحكم توافق طبع زهير وتؤيد حجته فى الدعوة إلى السلام ، ومن شأن هذه الحكم إنها ترقق الشعور وتبعث فى النفوس الصفاء وحسن المعاملة وجمال المعاشرة ، فهى تدعو إلى حب الناس ،والتآخى والتآزر وقول الحق ، والقضاء على الفتن والخلافات ، كما تدعو إلى كثرة البذل والعطاء ، والتحلى بالأخلاق العالية والشمائل الفاضلة ، وكل هذه الأهداف والأغراض تدعم السلام وترسى قواعده وتقيم عموده ، وتبغض فى نفوس الناس الحرب والتطاحن والتنافر والخصام والصدام وسفك الدماء .

وهذه الحكم السامية تسلك بالناس مسلك التراحم والود والتعاطف والتغاضى عن المعايب ، وبذل الخير والعمل لخيرى الدنيا والآخرة ، لأن الموت يأتى فجأة ، ولا يترك الإنسان فى حياته إلا الذكرى .

وكان للحكمة دورها الفعال فى الحث على مكارم الأخلاق ونزع

الأحقاد وتربية النفوس تربية صالحة ، ومن شأن الحكمة أنـــها ترقــق المشاعر والأحاسيس ، وتلين القلوب الجامدة ،وتستحوذ على النفـــوس الجامحة[١] .

دراسة وتحليل ونقد :

١ــ لقد أثرت البيئة الشعرية التى عاشها زهير بن أبى سلمى فيه وفى شعره، فأبوه أبو سلمى ربيعة كان شاعراً ، وأختاه سلمى والخنساء كانتا شــاعرتين ، وكذلك كان إبناه كعب بن زهير وبجير بن زهير ، ثم كان حفيده عقبه بن كعـب المعروف بالمضرب شاعراً ، وكان لعقبة هذا ولد يقال له العوام وكان شــاعراً أيضا[٢] ، وكان لأستاذيه الشاعرين العظيمين ــ خاله بشامة بـــن الغديــر ، وزوج أمه ــ أوس بن حجر ــ أثر عظيم فى شاعرية زهـــير وصقلــه ، ولا نعجب أن يكون زهير راوية لأوس ابن حجر يحفظ شعره ويروى عنه ، وهـــو الذى علمه الأناة والتأنق والتجويد فى إبراز صوره الشعرية ، ولذلــك عــاش زهير فى بيئة شاعرية تصدح بقول الشاعر فتخرجه للناس صافياً رقراقاً عذبــاً ينساب كالنسيم ويجرى كالماء فى الجداول ، ولهذا يقول ابن قتيبة كما ذكرنـــا سابقاً "إنه لم يتصل الشعر فى ولد أحد من الفحول فى الجاهلية ما أتصل فـــى

---

[١] يراجع : بحث للمؤلف الدكتور / على محمد طلب فى مجلة كلية اللغة العربيـــة بأســيوط بعنوان (الدعوة إلى السلام فى شعر زهير) العدد الأول ، ص ١١٦ ، وما بعدهـــا ط الأمانــة القاهرة ، ١٩٨٢م .

[٢] أنظر : الشعر الجاهلى للدكتور / محمد أبى الأنوار ، ص٢١٩ ، نشـــر مكتبــة الشــباب بالقاهرة .

ولد زهير وفى الإسلام ما أتصل فى ولد جرير"[١] .

٢ــ أما العوامل المؤثرة فى شعر زهير فكان أبرزها :

أولا : اليتـــــم :

فقد مات والده زهير وهو حدث فتعهده أخواله بنو عطفـــان ، وبخاصـــة الشاعر بشامة بن الغدير الذى أورثه بعض ماله وأورثه شعره وأورثه خلقـــه الكريم ، ويبدو أن اليتم حفزه إلى التأمل فى الحياة ، فخرج شاعراً من طـــراز ممتاز ، شاعراً له نظراته فى الحياة والناس والأخـــلاق ، كمـــا إن زوج أمـــه أوس بن حجر جعله يعتمد على مذهبه فى الشعر وأكسبه دربته الخاصة بـــه ، ولعل هذا جعله يطمئن إلى حكمة المصير ، والإيمان بقضاء الله وقدره .

ثانيا : الحـــرب :

فقد شهد زهير حرب داحس والغبراء بين قبيلتى عبـــس وذبيـــان ، وقـــد دامت هذه الحرب أربعين سنة كما تذكر المصادر القديمة ، ولقد كـــانت هـــذه الحرب تأكل الأخضر واليابس وتهلك الحرث والنسل ، وكـــان عـــامل شـــقاق وتناحر وصراع وثأر تخلف الويلات ولا تنتهى إلى سلم ، وهذه الأحداث الجلىّ ولدت لديه ميلاً إلى التفكير فى أفعال البشر ، ونزوعهم إلى الجـــهل والعنـــف وإراقة الدماء ، وذلك حلاً لمشكلاتهم التى لا تنتهى ، حيث إن العنـــف يولـــد العنف ، والإنسان يحيا فى دوامة من الكر والفر ، لا يهنأ له بال ولا يقر لـــه قرار ، فجنّد نفسه داعية للسلام ، يأخذ بيد من يدعو للسلام ويمدحه ، ويبـــث على مسامع الناس هذه الحكم التى استقاها من تجارب الحياة وأحداث الزمـــان

---

[١] الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٣٧/١.

. وفى هذه الحكم يرسم للناس المثل الأعلى للخلق القويم ، ويصوغها فى قالب من النصح والموعظة الحسنة ، وتدعو للتراحم والتعاطف والود بين الناس أجمعين .

ثالثا : الميراث الشعرى :

فقد ورث زهير ــ كما سبق أن ذكرنا ــ ميراثاً من الشعر فى أخواله ولا سيما بشامة بن الغدير ، وزوج أمه أوس بن حجر ، وكان هذا الأخير يتميز بأسلوب قوامه الوصف المعبر عن ذاته بالمشاهد الحسية ، والإعتماد على الحاسة فى إخراج صوره ، وقد أقتبس زهير هذا المعنى ، ووازن فى روية بين العبارة والفكرة[١] .

وهكذا كان ميراثه الشعرى من بشامة وأوس وهما اللذان عركا الدهر وخبر الحياة ، وكان أولهما كثير التحدث فى مكارم الأخلاق ، ومن ذوى الشرف والرأى فى قومه ، ومن أحزم الناس رأيا ، فكان قومه يستشيرونه ويصدرون عن رأيه وكان ثانيهما معروفاً بصدق النظر وطول التجربة واستصفاء الرأى المسدد حتى لقد كان موضع مشورة قومه[٢].

فكان هذا العلمان القدوة الطيبة التى سار على نهجهما واقتدى

---

[١] أنظر : نماذج فى النقد الأدبى للأستاذ / إيليا الحاوى ، ص٢٠٨ وما بعدها ط . دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٦٩م .

[٢] انظر :نصوص من الأدب الجاهلى للدكتور / عبد المقصود السعداوى ، ص٦٠ وما بعدها.

بهما فى حياته.

٣ــ لقد ضم النص الذى معنا فى ثناياه طرقاً أربعة أتبعها زهير فى دعوته إلى السلام وهى :

أولا : مدح الساعين إلى الصلح بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء ، وهما الحارث بن عوف وهرم بن سنان بأبلغ مدح وأجل وصف ، فلقد أشار بمنقبتهما الكرمية فى إنقاذ السلام والقضاء على الفتن والقلاقل ، وإطفاء نار الحرب المشتعلة بين عبس وذبيان ، وتحملهما ديان القتلى من مالهما الخاص وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير ، فأثر ذلك العمل النبيل فى نفسية زهير ، وفاضت عاطفته بالإعجاب والتقدير وأنفعل به أيما انفعال ، ومن ثم راح يمدحهما ، ويكيل لهما الثناء ، وأنهما لجديران بكل ذلك .

ثانيا : ذم الحرب ووصفها بأفظع وصف ، وذكر ما تجره من خراب ودمار وويلات وهلاك ، وقد قضت على الحرث والنسل ، وأكلت الأخضر واليابس .

وعندما يصف زهير الحرب يأتى بالوصف الرائع الذى يشد الأسماع ويصل إلى القلب ، ويملك الفؤاد ، ونرى فيه هول المعركة وجحيمها ووبالها، وينقل إلينا صورة صادقة ومعبرة للحرب ونتائجها ، ولا يجد المرء هنا إلا أن يحنى هامته إجلالاً لهذا الرجل وقوة بيانه ، وروعه شعره ، ولا ريب فى ذلك ، فقد أصاب المحز وبلغ شأو الكمال ، فى وصف هذه الحروب الدامية ، وما تجره من ويلات وخسائر فى الأنفس والأموال ، علاوة على الفزع والرهبة وانعدام الأمن من

جراء تلك الحروب .

ثالثا : ذكر الشاعر فى معلقته قصة حصين بن ضمضم[١] ـ هذا الرجل الذى أظهر الصلح ، وأخفى عن الناس سريرة الغدر والخيانة ، وانتهز فرصة سنحت له ، فاعتدى على رجل من أعدائه فقتله ، لما كان يكنه من ألم كبير لمقتل أخيه فى بنى عبس فجر على قومه النكال والوبال (وهذه القصة قد حذفناها من النص الذى معنا حتى لا نطيل فى الكلام) والذى يهمنا منها ما جره هذا الغادر على أهله وعشيرته ، فلقد أضمر الشر وحده ، وعاد عليه وعلى غيره ، فقد شد هذا الغادر وحده ، وانتقم لنفسه وثأر لأخيه ، ولكنه أثارها حمية فى النفوس ، وعصبية هو جاء فى الإقدام على الحرب وويلاتها ووبالها ، ومن ثم فقد هب قومه يذودون عنه ويقفون معه وقفة المدافع ، وما أدراك ما هذه الوقفة؟

لقد جرت عليكم النكال والوبال ، فأوردوا نفوسهم الظامئة إلى الدماء، وهم لا يكتفون بورد واحد ، بل كلما تعطشت نفوسهم من جديد أوردوها غمار الحرب ، فذاقوا الوبال تلو الوبال ، والدمار تلو الدمار ، وهذه النتيجة الحتمية للحروب ، لولا هذان السيدان اللذان تدخلا لفض النزاع وتحملا ديات القتلى ، وزهير وهو يذكر هذه القصة المؤلمة والمؤثرة ، وهذه الفعلة المنكرة يريد أن ينزع من النفوس هذه الحمية الجاهلية التى مؤداها (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) على فهم الجاهلين

---

[١] هو ابن عم النابغة الذبيانى ، لأن النابغة هو ابن معاوية بن ضباب بن جابر ، وحصين ابن ضمضم بن ضباب بن جابر (انظر : شرح القصائد العشر للتبريزى ، ص١١٥) .

لها ، ويبين للناس نتيجة هذه الحمية الجاهلية من سوء عاقبة وعظيم خطر ، ومن ثم يدعو الناس إلى سواء السبيل ، والأخذ على أيدى الظالمين وتجار الحروب ، حتى يتحقق السلام وتسود المحبة والألفة والتسامح .

رابعاً : حث فى معلقته الناس على مكارم الأخلاق ، والتحلى بأشرف الخصال الطيبة والسجايا الكريمة ، والشمائل الفاضلة الأصيلة بما أورد لهم من حكم سامية وعظات بالغة ، وراح الشاعر يقدم حكمته وتجاربه وخبرته بالحياة، فهو إنسان بر رحيم بقومه ، ومؤدى هذه الحكم الغالية، وتلك النصائح الرشيدة، أن المرء يقاس بمقدار ما يملك من التفكير القويم والخلق الرشيد والسلوك الحميد.

ولا شك فى أن هذه الرسائل التى سلكها زهير ، قد تضافرت جميعها لتقريب دعوته إلى قلوب الناس ، فكان لها أثر طيب فى نفوسهم الجامحة المتلهبة بنار الحقد والكراهية ، وكان الشاعر موفقاً فى هذه النقلات التى سلكها، فهى نقلات منطقية نفسية تتفق مع الطبيعة البشرية المتمردة ، فقد استولى الشاعر على مشاعر سامعيه بهذا المديح الصادق النابع من أعماق نفسه ، وأغوار وجدانه وشغاف قلبه ، ثم كانت هذه الجرعة القاسية وهى وصف الحرب والخيانة التى حدثت فى حصين ابن ضمضم والتى حركت النفوس وأمتصت حدتها وجبروتها بقوة تأثيرها وتصويرها وشدة وعظها وإرشادها ، فكان فيها مرشداً ومعلماً يأخذ بالألباب ، ويستولى على المشاعر والأحاسيس.

وأخيراً نجد الشاعر حكيما أديباً يفيض على السامعين من تجاربه

وعظاته وحكمه[١].

إن أهم ما يميز زهير أخلاقه العالية ونفسه الكبيرة مع سعة صدره وعظيم حلمه ، حتى إن قومه قد رفعوا منزلته وجعلوه سيداً عليهم[٢] ، ولا عجب فهو من الطبقة المثالية التى التزمت بمكارم الأخلاق ، وكانت عازفة عن حياة اللهو والمجون وشرب الخمر ، وعرفت بأنها طبقة عفيفة متوقرة عاقلة يمثلها زهير، أو قل أنشأها زهير بين أقرانه من الشعراء فى هذا المجتمع المضطرب[٣] ، ولا شك أن من يكون بهذه السجايا الرفيعة السامية ، وهذه الأخلاق الفاضلة يسمو على العصبية القبلية ، بل يحارب ما تغلغل فى هذه النفوس الظامئة للحرب والدمار والفناء ، وينزع ما فيها من غل وحقد وكراهية وهمجية وعدوان .

٤ــ ومن حيث التجربة الشعرية فى النص الذى يدعو زهير فيه إلى السلام، فقد تأثر زهير بموقف هرم بن سنان والحارث بن عوف ، هذا الموقف النبيل، وهذه الأريحية التى جعلتهما يحقنان الدماء بين القبيلتين ويسعيان للصلح ، بعد حرب دامت أربعين عاماً ، ويتحملان ديات القتلى، وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير، ولا ذنب لهما فى هذه الحروب ولا جريرة ،

---

(١) يراجع : بحث للمؤلف الدكتور / على محمد طلب بعنوان (الدعوة إلى السلام فى شعر زهير) ص١١٦ و ما بعدها .

(٢) انظر : تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان /٩٨ ط دار الهلال القاهرة ، ١٩٦٧م.

(٣) انظر : كتاب (زهير بن أبى سُلمى) للدكتور / عبد الحميد سند الجندى ، ص١٣٤ ، ط الدار القومية للطباعة بالقاهرة .

وصادف هوى فى نفس زهير ما يفعلان ، ومست هذه البادرة شغاف نفسه وأغوار فؤاده ، وانفعل بها أشد انفعال، فقال هذه المعلقة فى مدحهما والتغنى بالسلام والتنفير من الحرب ، والعاطفة الشعرية عند زهير فى هذا النص قوية وصادقة ، فهى تعبر عن وجدان صاحبها أعظم تعبير ، وتصور ما تكنه نفسه من حب للتسامح والخير ، وكراهته للغدر والشر ، ونحن نلمس فى النص حرارة العاطفة وصدق الشاعر والتجربة الشعورية التى عاناها الشاعر مع صدق النفس والوجدان ، ومن الثابت أن زهيراً لا يمدح أحداً بغير ما فيه من الصفات والخلال ، ولقد شهد له سيدنا عمر بن الخطاب ــ رضى الله عليه ــ فى مفاضلته للشعراء فعن عبد الله بن عباس : أنشدنى لأشعر شعرائكم ، قلت : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال: زهير "فقال ابن عباس : وكان كذلك ، فقال عمر رضى الله عنه : كان لا يعاظل[1] بين الكلام ، ولا يتبع وحشية ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه"[2].

وكفاه هذا فخراً وشرفاً أن يقول فيه أمير المؤمنين عمر هذا القول الكريم.

٥ــ أما من جهة ألفاظ النص الذى معنا ، فقد كان زهير يختار ألفاظه اختياراً ، ويبالغ فى اختيارها بذوقه وفطرته الأدبية ، ولكن لا يخلو

---

[1] كل شئ ركب شيئاً فقد عاظله ومعنى معاظلة الكلام : أى لم يحمل بعض الكلام على بعض، ولم يتكلم بالرجيع من القول ، ولم يكرر اللفظ والمعنى .

[2] انظر : طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ٦٣/١ ط المدنى ، القاهرة ١٩٧٤م.

أغلب شعره من سهولة فى اللفظ حينا ، وجزالة وقوة أحياناً .

ويعمد زهير غالباً إلى اللفظة المباشرة المحدودة المعنى المأثورة فى التداول، وقلما تقع على معاظلة ، أو تنافر فى الحروف ، ولقد ارتبطت ألفاظ هذه الأبيات بطبيعة النوع الأدبى ، فألفاظ المديح تميل إلى الجزالة، وألفاظ الحرب تميل إلى الحدة ، أما الشعر الحكمى فجاءت فى معظمها ألفاظ ذهنية ، فيما تضاءلت الألفاظ الحسية المادية بالنسبة لها[1] ، فألفاظ المديح مثل : ساعيا ــ نعم السيدان ــ السلم ــ معروف ــ نسلم ــ عظمين ــ يعظم ــ معد وغيرها من الألفاظ الدالة .

والألفاظ التى استخدمها فى الحرب مثل : المرجم ــ تبعثوها ــ ذميمة ــ تضر ــ تضرم ــ فتعرككم ــ الرحى ــ بثقالها ــ تلقح ــ كشافاً ــ فتتئم ــ أشأم ــ فتغلل ــ قفيز وما إلى ذلك .

أما الألفاظ التى استخدمها فى الشعر الحكمى مثل : سئمت ــ تكاليف ــ حول ــ يسأم ــ المنايا ــ خبط ــ عشواء ــ يعمر ــ يهرم ــ يصانع ــ يضرس ــ أنياب ــ المعروف ــ يفره ــ الشتم ــ يستغنى ــ يذمم ــ هاب ــ يرق ــ يذد ــ خليقة وغيرها من الألفاظ الدالة .

٦ــ وبالنسبة لأسلوب النص ، فقد كان أسلوب زهير من أساليب الشعراء المجودين المصنعين فى شعرهم ، وقد كان مذهب زهير فى

---

[1] أنظر : تراثنا الأدبى للدكتورين / محمد عبد المنعم خفاجى وإبراهيم على أبى الخشب ص١٩ ط دار الطباعة المحمدية القاهرة ، ونماذج فى النقد الأدبى لإيليا الحاوى ، ص٢٢٢.

الروية وتهذيب الشعر وتنقيحه ، للوصول به إلى منزلة الكمال الفنى ، وإدراك المنزلة السامية بين الشعراء ويتجلى أسلوب زهير فى عدة مظاهر ، فهو يبدو فى إمعان فى تنقيح الأسلوب ، وفى إدخال الرونق والبهاء والجمال على كل بيت من أبيات قصيدته ، وفى قصد للسهولة والوضوح والإمتاع واللذة الفنية التى تبعث على الإعجاب والروعة والتأثير .

ويغلب على شعر زهير ألوان كثيرة من الصنعة : من إستعارة وتشبيه وكناية ، ولكن هذه الألوان الفنية تجئ فى شعره عفو الخاطر من غير قصد إليها وتعمل لها ، وتكلف فيها ، وإنما تبعث من ذوق الشاعر وموهبته ، وروحه الصناع الموهوب ، ويجمع معظم النقاد على وصف أسلوبه بالخلو من التعقيد والتكلف ، وبالسهولة والوضوح فى قوة وجزالة ، وعلى أى حال فأسلوب زهير ينبع من شاعريته وملكاته ، ويمثل مذهبه فى الصنعة التى شهر بها[1] ، وكان مشهوراً بالتنقيح والتهذيب فأخرج لنا (الحوليات) ينظمها فى أربعة أشهر ، ويهذبها فى أربعة ، ثم يعرضها على خاصة الشعراء فى أربعة ، فلا ينشدها الناس إلا بعد حول كامل .

٧ــ استخدم الشاعر كثيراً من الصور البيانية الرائعة ، وكانت صوره البيانية قوية التعبير والتأثير ، وسر قوتها أنها صورة صادقة مفعمة

---

[1] انظر : تراثنا الأدبى ص ١٩.

بالمشاعر والأحاسيس النابعة من القلب والوجدان ، ومن هذه الصور قوله : "تبزل ما بين العشيرة بالدم" ففيها استعارة مكنية ، فقد شبه الرابط بين الأهل بشئ محسوس يصيبه التشقق ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بقوله : (تبزل) وفيها تجسيم للمعنى ، كما أن فى قوله (طاف حوله) كناية عن التقديس والتعظيم الذى يكنه العرب للبيت الحرام ، وفى قوله (سحيل ومبرم) استعارة تصريحية حيث شبه حالتى اليسر والعسر بالسحيل والمبرم ، وفى ذلك ما يوضح المعنى ويؤكده ، وأيضا فيهما كنايتان عن الرخاء والشدة ، وفى قوله (دقوا بيتهم عطر منشم) استعارة تمثيلية على سبيل المثل ، وفى قوله : (وقد قلتما إن ندرك السلم) كناية عن التصميم والعزم الكيد ، وفى قوله (لا تكتمن الله) إستعارة مكنية حيث شبه الغدر وهو أمر معنوى بشئ حسى يستر ويخفى ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشئ من لوازمه ، وفى قوله (يوضع فى كتاب) استعارة مكنية أيضا.

أما قول الشاعر (ذقتم) ففيه استعارة مكنية تؤكد المعنى وتقويه ، فقد شبه الحرب بالشئ المر الذى يذاق بالفم وحذفه وأشار إليه (بذقتم) وفى قوله الشاعر: (تبعثوها ذميمة) وقوله (تضر إذا ضريتموها) استعارتان مكنيتان ، فمرة يشبهها بالوحش الضارى الذى يهيج ويثور ، ومرة تخيلها ناراً تشتعل وحذف المشبه به ورمز لكل منهما بما يناسبه ، وفى قول الشاعر : (فتعرككم عرك الرحى بثقالها) تشبيه تمثيلى ، وقد أكد الشاعر بشاعة شرور الحرب بالتشبيه التمثيلى ، فقد شبه الحرب وما يتخلف عنها من قتل وسفك للدماء ، بالرحى التى تطحن الحب ،

فينزل على ثقالها ، ولم يلبث أن يتمزق ويبلى ، وفى قـــول الشـــاعر : (تلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم) استعارتان مكنيتان حيث استعار الناقة التـــى تحمل مرتين فى العام ، وتلد توأما للحرب التى يتضاعف شـــرها ، ثـــم حذف المشبه به ورمز إليه بما يدل عليه (تلقح كشافاً فتتئم) وفى قوله (فتنتج لكم غلمان أشأم) كناية عن طول الحرب ، وفى قوله (ســـئمت تكـــاليف الحياة) كناية عن كرهه للحياة وسأمه منها ، والكناية فـــى الأمثلـــة الســـابقة تحمل الشئ ودليله كما نرى .

وفى قوله : (ومن لا يتق الشتم يشتم) استعارة تمثيلية ، جـــرى مجـــرى المثل فى الموطن المشابهة ، ومثله قوله (رأيت المنايا خبط عشواء) ففيـــه استعارة تمثيلية على سبيل المثال ، حيث شبه المنايا وهى تسعى بين النـــاس بالناقة التى لا تبصر ليلاً فتخبط بيديها علـــى عمـــى وضـــلال ، وفـــى قولـــه (يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم) كناية عن قوة البطش والظلـــم ، وفـــى قولـــه الشاعر (وإن يرق أسباب السماء بسلم) كناية عـــن الســـعى إلـــى الـــهرب والنجاة).

ونحن نرى أخيلة الشاعر منتزعة من البيئة الجاهلية شديدة الإتصال بها ، والصور ناطقة بالحياة نابضة بالحركة ، يكاد السامع يرى ما فيها ماثلاً أمامـــه مجسماً للعيان ، وكثيراً ما تأتلف الصور الجزئية فى صورة كلية رائعة كـــالتى رسمها للحرب[1] ، وما جسمته من أهوال ودمار وويلات .

---

[1] انظر : من النصوص الأدبية فى الجاهلية والإسلام للدكتور / مصطفى يونـــس ، ص٢٣ ط الفجر الجديد القاهرة ١٩٨٢م .

٨ـ لقد استخدم الشاعر كثيراً فى هذا النص (الطباق) وهو من المحسنات البديعية المعنوية ، ومعناه : الجمع بين الشئ وضده فى الكلام ، وهذه الأبيات حافلة بالطباق ، يرد بلا تكلف ولا تعمل ، فلم يتعمده الشاعر ، مثل قوله : (من سحيل ومبرم) فالسحيل : الخيط المفرد ، والمبرم : المفتول وبينهما طباق، وفى قول الشاعر (ومهما يكتم الله يعلم) بين يكتم ويعلم طباق ، وفى قوله (وأعلم علم اليوم والأمس) بين اليوم والأمس طباق ، وفى قوله (يكن حمده ذماً) بين الحمد والذم طباق ، وفى قوله (ومن يغترب يحسب عدواً صديقه) والطباق قائم بين العدو والصديق ، وفى قول الشاعر (وإن خالها تخفى على الناس تعلم) ، وقد تطابق تخفى وتعلم ، وفى قول الشاعر :

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

نجد الطباق بين يؤخر ويعجل ، وبين فيدخر فينقم بمعنى البطء والسرعة، وما إلى ذلك .

ولكن لماذا طغى الطباق عند زهير فى هذا النص ؟

"لقد اقتضى الطباق عند الشاعر بطبيعة التجربة ، إذ أنه ينقض أمراً ويحل من دون أمراً آخر أصلح منه ، والطباق ينطوى كذلك على معنى التفصيل كقوله : (من تصب تمته ومن تخطئ يعمر) فقد ألم بالطباق ليحيط بالمعنى من كل جوانبه ، ويؤدي له الاحتمالات المتعددة ، أما معنى النقض ، فتقع عليه فى قوله (يكن حمده ذماً عليه) ، فقد نقض معنى الحمد وأحل من دونه معنى الذم ، أو أنه بالأحرى نفاه وأثبته عكسه ، ومثل ذلك : العدو والصديق ، ويخفى ويعلم، العلم والكتمان ،

وهكذا فإن الطباق كان حينا أداة للنقض وأحياناً أداة للتفسير والتفصيل"[١] .

٩ــ أما عن موضوع النص الذى عرضه الشاعر زهير بن أبى سُلمى ، فقد تناول ثلاثة أغراض : وهى المدح ووصف الحرب والحكمة ، وقد بدأ هذا النص بالغرض المهم وهو مدح السيدين بطلى الصلح بين عبس وذبيان ، فأضفى عليهما الصفات والسجايا الكريمة ، ويكفيهما فخراً وشرفاً وعزا أنهما قد حقنا دماء القبيلتين وعصما قومهما من الفناء والهلاك والدمار ، وأنهما تحملا ديات القتلى من القبيلتين من غير أن يكون لهما فى ذلك ذنب ولا جريرة، وبعد ذلك يأتى وصف الحرب وبشاعتها وقد نفر من ويلاتها ومصائبها، وقد أجاد زهير فى تصويره للحرب بهذه الصور المخيفة ، التى تحمل الناس على بغضها والتنفير منها ، وهو بذلك يدعو إلى السلام ، وأن يتحول العرب عن هذه الحروب والمعارك الطاحنة ، إلى حياة السلم الوادعة الآمنة التى تشيع فيها الأخوة والمحبة فى هذا المجتمع الذى لا ينعم بالأمن ولا يعرف حياة الإستقرار[٢] .

وأخيراً عرض طائفة من الحكم التى اكتسبها من طول تجاربه ، فكانت حكماً لا تبتعد كثيراً عن الغرض الذى يرمى إليه الشاعرويهدف له

---

[١] نماذج من النقد الأدبى وتحليل النصوص ص ٢٢٤ وما بعدها .

[٢] انظر : نصوص من الأدب الجاهلى ، ص٥٨.

وحكم زهير تنبئ عن خلقه الرفيع ونفسه العالية ، وقد جعلته أثير المكانة لدى الناس ، وبخاصة لما جاء الإسلام ، وقد فضله كثير من المسلمين ومنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ من أجل حكمه وصدقه فى القول .

وإنما تعددت الأغراض عند زهير ، لأن الشاعر العربى ، كان يعتمد على البادرة واللمحة الخاطفة ، وعلى ما يعن له من أفكار ، فيسجلها شعراً فى كل أمور الحياة .

١٠ــ أجاد زهير فن المديح إجادة عالية ، وأدركنا سر هذه الإجادة على لسان سيدنا عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فى قوله : "كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتبع وحشيه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه"[1] ، ونريد أن نتحدث عن أسباب تجويده فن المدح من خلال هذا النص ، وهذه الأسباب من أهمها :

أولا : حرص زهير على تسجيل بعض مآثر سادات العرب ، الذين كان لهم منزلة مرموقة فى الحياة الجاهلية ، وأثر واضح فى فض مشكلات الحرب بين قبائلها .

ثانيا : خلق الوفاء الذى طبعت عليه نفس زهير ، وشدة تأثره بأيدى ممدوحيه عليه وعطاياهم له .

ثالثا : اعتزازه بمفاخر القبيلة ومجدها ومآثرها ، مما كان يدفعه إلى

---

[1] طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ٦٣/١ ط المدنى القاهرة ، ١٩٧٤م .

مدح قومه الأماجد .

رابعاً : اتصاله بهرم بن سنان ، وتوالى أياديه عليه ، كل هذه الأسباب جعلته قمة المدح وفى ذروته ، ولا ننسى أنه لا يمدح أحداً إلا بما فيه ، وفى هذا الأمر كفاية ، ولذلك قالوا : "أشعر الناس : إمرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب" ، ويقصدون من ذلك أن أجود شعر امرئ القيس كان فى وصف الخيل والصيد ، وأجود شعر زهير كان فى المدح ، وأجود شعر النابغة كان فى الاعتذار ، وأجود شعر الأعشى كان فى وصف الخمر[1] والغزل.

١١ــ ربما يقول قائل : إن زهيراً ــ على حصافة عقله وثقوب فكره ونضج شاعريته ــ قد ناقض نفسه ، لأنه فى حكمه يرسم للناس المثل الأعلى للخلق القويم وحسن المعاملة ، ويرسم لهم طريق السعادة فى حياتهم ، ثم ينقض ذلك بقوله :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ويمكن الرد على هذا القائل : بأنه قد نسى أن زهير كان يعيش فى هذه البيئة الجاهلية ، وأنه لم يستطع أن يتخلص من بيئته ، وما تأصل فيها من عادات ، وقد رأى أمامه أن الجور والظلم سمة القهر والغلبة ومنجى من العدوان.

فزهير ــ وإن كان رجلاً مثالياً ــ لم يقوم على أن يطهر نفسه من

---

[1] انظر : تراثنا الأدبى (صور من روائعه وملامحه) ، ص٢٠ ، وما بعدها .

بعض هذه الأخلاق السيئة التى كانت متفشية فى الجاهلية ، ومن ذا الذى يستطيع أن يستأصل من نفسه كل ما انغرس فيها من عادات البيئة وسلطانها ، وعندما أرق عليهم الإسلام لم يستل من نفوسهم هذا الخلق الشائن المزرى ، فقد هجا النجاشى الشاعر الإسلامى ، بنى العجلان بقوله :

قبيلة لا يخفرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فهو يصفهم بالضعف والاستكانة ، وعجزهم عن ظلم الناس ، ولقد شعر بنو العجلان بهذا الهجاء ، وعدّوه هجاء مراً يزرى بهم ، فاستعدوا عليه عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ ، ولكن عمر نظر إليه بروحه الإسلامية السمحة التى تمقت الظلم فقال : "ما أرى ذماً ، فليت آل الخطاب كذلك" ، ولم ير فيه هذا المنكر المختفى تحت ألفاظ الشاعر ، والحق أن البيت يعدّ مدحاً خالصاً ، وليس فيه هجاء ما ، ولكنها الطبيعة الجاهلية وكفى .

ويمكن أن يقال فى تفسير هذا التناقض عند زهير : إنه ربما أراد بهذا البيت التهكم بهم والتنديد بأخلاقهم الذميمة ، فقال : إن من يروم الغلبة والاستعلاء منهم لجأ إلى هذه العادة القبيحة وهى ظلم الناس ، وقد سبق فى شعر زهير أن اصطنع السخرية وسيلة للحث على الفضيلة والنهى عن الرزيلة، فقال يصف الحرب متهكما :

فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

وهذا فى رأيى من أحسن ما قيل فى الرد على التناقض الذى حدث فى شعر زهير ، لإننا نعرف خلق زهير وعدله ورحمته ، وما فطر عليه

من سماحة وحب للخير والمعروف .

ويمكن أن يقال أيضا : إنه أراد أن يصف الحياة العربية الجاهلية على حالها وفى واقعها المر ، وهو منكر لما فيه من قبيح العادات[١] وسئ الأخلاق والصفات.

١٢ـ نستطيع أن نبرز الدروس التى وعاها النص وحرص عليها ، من خلال عرضنا له ، حيث يدعو فيه زهير للسلام ، وهو يمثل العقلية العربية المتفتحة والخلق العربى القويم ، وفى وقوفنا على هذه الدروس إدراك لطبيعة القيم الإنسانية التى يهدف إليها زهير ، وهى تتمثل فى الآتى :

أ ـ من الشائع عن الأمة العربية فى الجاهلية أنها أمة حرب وقتال ، لأن العربى لا يقبل الضيم ولا يسكت على الذل ، وقد شاعت هذه الصفة عن العربى ، وضعف بجوارها كل صوت يدعو إلى السلام والأمن والعدل والطمأنينة ، وهذا النص الذى معنا من الأدلة الرشيدة على حب العربى للسلام، ورغبته فيه وحرصه عليه ، ولذلك نرى شاعرنا عميق الصدق قوى التأمل لويلات الحرب وشرورها ، ومعنى ذلك أن الأمة العربية تعى دور السلام وأهميته فى حياة الإنسان ، وهى أمة حريصة على السلم بما فيه من عدالة وأمن،أو بتعبيرنا الحديث:السلام القائم على العدل والحرية والكرامة

---

[١] انظر : نصوص من الأدب الجاهلى للدكتور / عبد المقصود السعداوى ، ص٦٢ وما بعدها.

ب ــ الإشادة بخلق البذل والعطاء : نلاحظ أن الشاعر قد سجل لنا صفحة ناصعة ومشرفة فى تاريخ الإنسان العربى ، وهى الخاصة بتحمل الحارث بن عوف وهرم بن سنان لديات القتلى من الفريقين ، ولا ذنب لهما ولا جريرة فى إشعال الحرب والإشتراك فيها ، وهذا الموقف هز وجدان الشاعر وتأثر به وانفعل به إيما انفعال ، وصادف هوى فى نفسه وقلبه وفؤاده ، وكان فى النص مدى تقديره بل دهشته من هذا العطاء النبيل فى سبيل إيقاف الحرب وإشاعة السلام .

ج ــ التمسك بالأخلاق العالية والسجايا الرفيعة ، والسلوك الحميد ، والتأمل فى الحياة بعين البصيرة والاعتبار ، فقد ختم هذا النص ــ والذى يعد من عيون الشعر العربى ــ بحكم سامية ، نرى فيها القيم النبيلة العالية التى يحتاج إليها المرء فى كل زمان ومكان ، وتظهر مقدرة الشاعر فى تحبيب الإنسان العربى فى الفضائل العالية والسجايا الرفيعة والشيم الكريمة والسلوك الحميد ، وتدلنا على أن الطبع العربى مفطور على الاستجابة لهذه المكارم والفضائل[1] والشيم والأخلاق .

تعليق عام على النص :

١ــ كان زهير بن أبى سلمى شاعراً مجيداً معدوداً من فحول الشعراء فى

---

[1] انظر : الشعر الجاهلى للدكتور / محمد أبى الأنوار ، ص٢٦٦ وما بعدها .

الجاهلية ، وكان النقاد يضعونه مع إمرئ القيس والنابغة الذبياني والأعشى فى طبقة واحدة هى الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية[١] ، وكانت شاعريته هى التى أوصلته إلى المكانة المرموقة والمنزلة الرفيعة فى دنيا الشعر ، ومن أسباب شاعريته ما يلى :

أولا : هذه البيئة العربية البدوية الشاعرة التى نشأ وترعرع وعاش فيها.

ثانيا : تلك النهضة الأدبية فى الشعر التى كانت تزخر بها نجد والقرى العربية المحيطة بها ، وذلك فى عصر زهير .

ثالثا : وراثة الشعر عن أسرته ، جعلته يجود من شعره ويهذب من شاعريته ، فقد كان خاله بشامة بن الغدير شاعراً ، وكان زوج أمه أوس بن حجر شاعراً مجيداً وكانت أسرة زهير من آبائه وأختيه وابنيه وذريته من المجيدين فى الشعر .

رابعاً : اشتراك زهير فى المعارك الحربية فى الجزيرة العربية ، ولا سيما فى حرب داحس والغبراء والحروب تثير الشاعرية وتدعو إلى التأمل فى مصير الناس ، وتهيج الخيار وتحرك الشعور ، وتبعث على الكلام .

خامسا : المنافسات الأدبية بين زهير والشعراء المعاصرين له ، كانت سبباً أيضا من أسباب نضوج شعره وشاعريته .

---

[١] انظر : طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى ١/٥١ وما بعدها .

سادساً : قصد زهير بشعره إلى مدح سادة العرب ، كان يدفعه إلى الإجادة والتهذيب فى شعره ، مما رفع من مكانته ، وقوى أسباب الرغبة فى نفسه وشاعريته .

سابعاً : تجارب زهير وخبرته بالحياة أنضجت شعر الحكمة عنده[١].

٢ــ أشتهر زهير بالتجويد لشعره ، والروية والأناة فى نظمه وبخاصة مطولاته ولصفاء شعره وجودته لم يكن غريباً أن يسمى زهير بصاحب الحوليات ، وتظهر أناته وهدوءه فى رزانة تفكيره ، وتخيره للمعانى التى تناسب أغراضه الشعرية ، ثم انتخاب الألفاظ التى يستخدمها للتعبير عن المعانى مع نقاء العبارة ، وبعدها عن التعقيد والإغراب .

والحقيقة أن الحديث عن زهير بن أبى سلمى حديث عن الشعر الجاهلى فى طور التهذيب والتنقيح ، أو فى مرحلة من مراحل نضجه ، وتعد خطوة واسعة من خطوات تقدمه وإزدهاره ، لأن الملامح التى بدت عليه ، والصفات التى ظهرت فيه والجهود التى بذلها هذا الشاعر المجيد الفحل فى سبيل تطور الشعر الجاهلى وتقدمه ، إنما هى جهود موفقة ترتقى به إلى مرتبة العظماء المبرزين[٢] .

---

[١] انظر : تراثنا الأدبى (صور من روائعه وملامحه) ، ص١٧ وما بعدها .

[٢] انظر : من النصوص الأدبية فى الجاهلية والإسلام ص٢٥.

٣ــ لشعر زهير أبى سلمى مكانة عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه بصفة خاصة ــ وقد عرفنا فيما سبق أن أمير المؤمنين عمر جعل من زهير أشعر الشعراء ، وقال قولته الشهيرة "كان لا يعاظل فى الكلام ولا يتبع وحشيه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه" ، وقال أمير المؤمنين عمر لبعض ولد هرم بن سنان : " ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم " ، وبلغ من إعجاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ببيت زهير الذى يقول فيه :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

ويقول رضى الله عنه وأرضاه : "لو أدركت زهيراً لوليته القضاء لمعرفته بمقاطع الحق" ، ويروى أن عمر لما أنشد هذا البيت ــ وكان لشعره مقدماً ــ أخذ يردده من التعجب ، ويقول بعض الرواة : "لو أن زهيراً نظر إلى رسالة عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى ما زاد على قوله هذا" ، وسمى زهير (قاضى الشعراء) بهذا البيت ، وحق لهم أن يسموا زهيراً (قاضى الشعراء) لأنه أصاب بهذا البيت المحز وبلغ الغاية من القول ، فإن الحق لا ينفذ إلا بواحدة من هذه الثلاث : وهى اليمين ، والنفار ، أى يتنافر الخصمان إلى رجل يتبين حججهما ويحكم بينهما ، ثم الجلاء ، وهو أن ينكشف الأمر فيقضى به لصاحبه دون خصام ولا يمين ، وليس للحق مقاطع غير هذه ، وهى تعصم الناس من الزل والالتباس والشك ، ولذلك يقول زهير بعد هذا البيت :

فذلكم مقاطع كل حق ثلاث كلهن لكم شفاء

وقريب من قول الشاعر زهير قول قس بن ساعدة الإيادى : "البينة

على المدعى واليمين على من أنكر" ، وكان الاثنان فى عصر واحـــد ، وقد ثبت أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ رأى كليهما قبل البعثـــة المحمدية ، ولا نعرف أيهما أخذ من الآخر؟[1]

(والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله)
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،

---

[1] انظر : نصوص من الأدب الجاهلى ، ص٦٤ وما بعدها .